دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

في هذا العدد

تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

العدد الثامن – السنة الرابعة عشرة – شعبان 1391 – أكتوبر 1971

ثمن العدد درهم واحد

من ماضينا

دولة المماليك بالهند

للدكتور محمد يوسف
جامعة كراتشي - الباكستان

(أ)

من المصادفات ذات الاهمية الكبرى ان يكون اول مؤسس للدولة الاسلامية المستقلة بدهلي عبدا مملوكا ، اعني قطب الدين أيبك الذى سعى بجد واخلاص وكفاءة ممتازة لنشر نور الاسلام وتقوية دعائمه من الناحية السياسية والعسكرية والاخلاقية داخل الهند فى القرن السابع الهجري ـ حقا ليس الامر بدعا فى التاريخ الاسلامي ، فان المماليك حكموا مصر والبلاد الاسلامية الاخرى احقابا طويلة ، الا ان اخص ما يمتاز به المجتمع الهندوكي ، هو نظام الطبقات المبني على اساس التمييز بين الناس من حيث السلالة والمولد ، بحيث يكون البراهمة فى الطبقة العليا والمنبوذون فى الطبقة السفلى ، وقد كتب للمنبوذين الاستسلام للرق والانخراط فى المهن الوضيعة مؤبدا وحظر عليهم الاحتكاك بالطبقات العليا باي شكل من الاشكال، ولا يسمح لهم بالمؤاكلة او المجالسة او الاشتراك مع غيرهم حتى فى الاستقاء من الآبار وعبادة الاوثان والاصنام ، فشاءت حكمة الله ان يرتقي عرش دهلي مملوك من المماليك ايذانا بمجيء الحق وزهوق الباطل والغاء للفروق بين الناس حتى يرجعوا احرارا كما ولدتهم امهاتهم ، والحقيقة ان حياة قطب الدين منذ الصغر وفى مختلف ادوارها تمثل المبادىء الاسلامية باسمى معانيها من البر بالمماليك وتربية الصغار منهم وتعليمهم اسوة بالاولاد واهل البيت ، ثم تقليدهم المناصب الكبرى فى الجيش والادارة حسب مقدرتهم وكفاءتهم .

لقد كان قطب الدين سعيد الحظ اذ التحق مملوكا صغيرا بخدمة القاضي فخر الدين عبد العزيز الكوفي ، الذى كان من احفاد ابي حنيفة وكان يعرف بامام عصره مع توليه الحكم بنيسابور وما حواليها ، فبدا قطب الدين يدرس القرآن بعناية فائقة ويختلف الى الكتاب والمدرسة مع أولاد القاضي فخر الدين حتى عرف بلقب « القاريء » من بين المماليك الاتراك الذين كان ديدنهم الالعاب الرياضية والنرد والشطرنج فحسب ، ومهر قطب الدين ايضا فى اعمال الرمي والفروسية ، حتى اذا شب وكمل ساعدته الاقدار مرة أخرى فانتقل بعد وفاة القاضي فخر الدين الى ملك السلطان معز الدين سام المعروف بشهاب الدين الغوري ، فتوسم فيه السلطان بنظره الثاقب مخايل العظمة والنباهة مع انه كان قبيح المنظر وكانت اصابعه غير سليمة ، مما جعله يلقب بـ « ايبك » ـ الكلمة التركية التى تشير الى تلك العاهة بالذات ، وكلما منحه السلطان منحة بادر الى توزيعها على المماليك الآخرين بدون ان يستأثر هو بها ، والى جانب مظهر الجود والسخاء هذا كانت له مواقف مشهودة فى الحرب ايضا ، الى ان هاجم السلطان شهاب الدين وسط الهند ففتح (اجمير) وتغلب على دهلي ثم عزم على الرجوع الى غزنة ، فخلف وراءه قطب الدين كنائبه العام والقائد الاعلى للقوات المسلحة فى الهند ، فاحكم قطب الدين امر البلاد المفتوحة واغتنم كل فرصة لتوسيع نطاق الفتوح وبنى قاعدة حكمه فى دهلي ، ومما يذكر انه بقي دائما مخلصا فى ولائه

اولى نعمه يأتمر بأمره ويبغي رضاه فى جميع تصرفاته ، يصحبه فى غزواته اذا حضر ويفتح الثغور باسمه ويسوس الامور برسمه حتى قويت شوكته ووطئت خيوله ارض جزرات الى اقليم بنغاله ـ ولما استشهد السلطان شهاب الدين لم يفكر قطب الدين لحظة واحدة فى الاستبداد بالامر والاستقلال بالمملكة الهندية ، بل ما زال مواليا للاسرة المالكة الى ان تقدم السلطان محمود ، ابن اخي السلطان شهاب الدين وملك غزنة الجديد ، تقدم من تلقاء نفسه الى خلع لقب السلطان على قطب الدين وتقليده الامارة المستقلة فى الهند ، فكانت المعاملة بينه وبين الاسرة الغورية آية فى الوفاء ونبل النفس والمجازاة على حسن العمل من الجانبين ـ كان قطب الدين ورعا تقيا حازما فى السياسة الشرعية ، لم يتوان فى اقامة الحدود فرفع المكوس غير الشرعية عن اموال الناس وبسط العدل حتى قضى على جميع نزعات التعصب للجنس والوطن فتفانى التركي والخراساني والافغاني والهندي كلهم فى خدمة الاسلام واعلاء كلمة الله وضبط الامور بحزم حتى استتب الامن ونشطت حركة التجارة والصناعة فتوفر الرخاء ، كما انه شجع الآداب والعلوم الاسلامية حتى تكفل العلماء ضرورات التشريع والوعظ والارشاد ، فخلاصة القول ان عهد قطب الدين المملوك التركي المملك : كان خير تعريف بالاسلام فى ارض الهند المنكوبة باهدار كرامة الانسان وسيادة نظام الطبقات .

(ب)

شاءت حكمة الله ان يتم بناء قاعدة الحكم الاسلامي بدهلي على يد عبد مملوك ، اعني قطب الدين ايبك الذى خدم الاسرة الغورية بولاء واخلاص وتقلد الامارة المستقلة بالهند بجدارة وكفاءة ، ثم اراد الله ان يؤكد العدل الاجتماعي والمساواة بين الناس فى الاسلام للهنود المنكوبين بنظام الطبقات فقضى أن يخلف قطب الدين ايبك مملوك آخر يفوق اقرانه بأدبه فى الحرب والسياسة فيملك برضا الخاصة والعامة ، الا وهو شمس الدين ايلتتمش الذى تولى زمام الحكم بدهلي فى اوائل القرن السابع للهجرة ـ لقد ابتلى ايلتتمش منذ الصغر بوقائع غريبة ذات عبر ، فانه ولد فى بيت سؤدد وامارة ، كان أبوه ايلم خان شيخا من شيوخ القبائل بتركستان ، مشهورا بكثرة خدمه واعوانه ، وكان ايلتتمش أعز ابنائه لديه لحسن صورته واعتدال سيرته ، مما أثار الغيرة والحسد فى سائر اولاده ، فلم يكن منهم الا أن كادوا له كما كاد ابناء يعقوب لاخيهم يوسف ـ نعم! تآمر اخوة ايلتتمش عليه فاستدرجوه يوما للهو والصيد وباعوه لنخاس جلبه الى بخارى حيث ملكت ايلتتمش اسرة ممتازة بالعلم والفضل ، فتربى ايلتتمش باحسن حال وانعم بال اسوة باولاد مواليه الاحرار ، فتحلى بالعلوم والآداب والفضائل النفسية ، ولاسيما الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ، ثم كان من حظه ان انتقل من بيت العلم والفضل الى بيت الفقر والرياضة الصوفية ، أي انه بيع مرة أخرى فملكه الحاج جمال الدين ، احد المتصوفة ببغداد التى كانت تعج اذ ذاك بأقطاب الصوفية ، فأتيح لايلتتمش الالتقاء بامثال الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي والشيخ أوحد الدين الكرماني ، كان ايلتتمش غلاما فى الثانية عشرة من عمره ، يتعهد اسراج الشمع وخدمة الشيوخ بينما هم يسهرون الليالي فى الاذكار والاوراد ، الا انه كان دائما يلفت انظار الشيوخ اليه فكانوا يخصونه بالعطف والتوجيه والارشاد ، وربما رأوا فيه مخايل العظمة والنباهة فبشروه بالامرة والحكم واخذوا منه عهدا ان ينيب الى الله فى جميع اعماله ولا يتوانى فى اعلاء كلمة الله ونشر الفضائل الاسلامية ، ثم قدر له ان يتدرج من بيتي العلم والتصوف الى بيت الامرة والجهاد فى الحرب ، فباعه الحاج جمال الدين من قطب الدين ايبك ، فرعاه قطب الدين ايبك حق رعايته على قدم المساواة مع اولاده ، واعجب به أي اعجاب لما ابداه من استعداد تام لاعمال الفتوة والحرب مع البراعة فى تدبير الامور وسياسة البلاد ، وقد ابلى ايلتتمش بلاء حسنا فى عدة حروب ولاسيما فى منطقتي (جوليار) و (بدايون) بشمال الهند ، كما انه امتاز بالحزم واللباقة فى ادارة المنطقتين حتى قمع الاعداء والمشاغبين واقام العدل والنظام ، ولم يعجب به قطب الدين ايبك فحسب ، بل اعجب به مولاه السلطان شهاب الدين الغوري الى حد انه اوصى ايبك بتحرير رقبة ايلتتمش ، فاعتقه ايبك وزوجه ابنته ، وهكذا سجل التاريخ كيف يكون الرق وسيلة للعلم وتزكية النفس وممارسة آداب الحرب والسياسة والحصول على الامرة والحكم والالتحاق ببيت الرئاسة بالزواج ـ واخيرا لم يوجد احد احق منه بالخلافة واجدر منه بالرئاسة بعد وفاة قطب الدين ايبك فاختاره اهل الحل والعقد ورضي به الخاصة والعامة ـ ويشهد التاريخ بانهم كانوا موفقين فى

اختيارهم له ، اذ لم يكن بدعا منه بعد تدرجه فى مراحل التربية السالفة الذكر أن يكون ملكا تقيا ورعا حتى انه بلغ مرتبة الزهاد والصوفية ، الا انه لم يبلغ به الزهد الى أن يهمل امور الدنيا ويغفل عن سياسة المملكة . كذلك لم يمل كل الميل لا الى العلماء والفقهاء ولا الى الزهاد والصوفية . فان الفئتين مع الاسف كانتا تتناحران وتكيلان التهم كل واحدة ضد الاخرى، لكن ايلتتمش ابى ان يقدم احداهما على الاخرى . فالى جانب اكرامه للصوفية لم يقصر فى تنفيذ احكام الشريعة والاخذ براي الفقهاء فى القضاء والحكم بين الناس ، وكان يستمع الى توجيهات الصوفية ونصائح الفقهاء على السواء وربما كان العلماء والفقهاء اشد وابلغ فى تذكيره بواجبات الملك من الصوفية، ومن مآثره الخالدة انه اشرف بنفسه على تاسيس مدارس حكومية للآداب العربية والعلوم الاسلامية ، اسس المدرسة المعزية بدهلي و (بدايلون) تخليدا لذكرى مولى مولاه ، معز الدين الملقب بشهاب الدين الغوري ، ولم يكن اهتمامه بمرافق الحياة العامة اقل من اهتمامه بالعلوم والآداب، فقد بنى خزانا للماء عرف بالحوض الشمسي وقد اطنب فى وصفه ابن بطوطة لدى زيارته للبلاد فى زمن متاخر ، فخلاصة القول أن ايلتتمش كان عديم النظير فى الجمع بين الدين والدنيا والاهتمام بالظاهر والباطن على حد سواء ، رحمه الله وجزاه عن المسلمين وعن الاسلام خير الجزاء .

(ج)

لقد كانت دولة المماليك بدهلي آية من آيات الله ، فانها مثلت مبادىء الاسلام السمحة خير تمثيل واقامت مجتمعا يسوده العدل والمساواة ورفعت منار العلم والتقوى فى بلد كان البراهمة يستأثرون فيه لا بالسؤدد والحكم فقط ، بل بالعلم والعرفان ايضا ، فانهم كانوا قد حظروا على المستعبدين من عامة الناس حتى الاطلاع على الكتب المقدسة او الاستماع لها . فشاءت حكمة الله ان يكون المجتمع الاسلامي تحت رعاية دولة المماليك انموذجا للديموقراطية المبنية على الشريعة الغراء — لم تكن امرة المماليك فلتة ، بل أصبحت سنة وعادة متبعة بحيث اصبح يرتقي عرش المملكة امراء من طبقة المماليك الذين تربوا فى حجر المماليك أمثالهم بعد ان كانوا من المماليك الموالين للاحرار ، ففى أواخر القرن السابع للهجرة خلف على عرش دهلي السلطان غياث الدين (بلبن) الذى اشتهر برعايته للعلم والعلماء وحرصه على طلب النصح من المشايخ والاتقياء — كان بلبن اصله من تركستان التى انتمى اليها ايلتتمش من قبله ، اتفق له وهو غلام صغير ان وقع اسيرا فى يد بعض الجنود من المغول الذين اعتادوا شن الغارات على تركستان فى ذلك الزمن ، فجلبه الجندي الى بغداد وباعه لجمال الدين البصري الذى كان يتقي الله فى جميع اعماله ، فامتثل امر النبي صلى الله عليه وسلم فى الشفقة والرأفة على مملوكه وحنا عليه حنوه على ولده ، ولم يقصر فى حق تعليمه وتثقيفه وتربيته فى اعمال الفتوة ، حتى اذا ترعرع وشب وكمل رأى جمال الدين البصري ان يقدمه الى ايلتتمش ملك دهلي لعله يتذكر القربى ويقدر مواهب بلبن فيوسع امامه المجال للخدمة فى المراتب العالية ، وفعلا اغتبط ايلتتمش بضم بلبن وجمع من المماليك التركستانيين معه الى قصره وكافا جمال الدين احسن المكافاة عن هؤلاء ، وهناك فى قصر ايلتتمش فوجىء بلبن مفاجاة سارة بالالتقاء مع اخيه الذى كان سبقه فى الاسر والالتحاق بخدمة ايلتتمش فى الحجابة ، وهناك فى بلاط ايلتتمش التقيا معدبلين بالتصرف الى العلماء والصالحين الذين ربما دعاهم ايلتتمش الى الاجتماع به للوعظ والارشاد الى سبل الخير فتأثر بهم بلبن وجاهد فى ابتغاء الخير فى مزاولة سلطته الملوكية فيما بعد ، لقد توارث اولاد ايلتتمش الامارة بعده ، يليق بالذكر منهم السلطانة رضية ، ابنته المهذبة التى اثبتت كفاءتها ومقدرتها على سياسة الرعية على الرغم من تورع عامة الناس من الانقياد للمرأة ، كذلك السلطان ناصر الدين محمود بن ايلتتمش الذى تزوج من ابنة بلبن واتخذه وزيرا ونائبا له ، فلما مات السلطان ناصر الدين محمود أتت الخلافة منقادة الى بلبن — نعم ! اصبح بلبن ملكا مملكا من قبل جميع الامراء واصحاب الحل والعقد — الا ان الامرة والخلافة زادته زهدا وتورعا مع الاقبال على امور الملك والسياسة — يقول المؤرخون انه كان قبل أن يرتقي العرش يشغل بعض اوقاته بمجالس الشراب واللهو والعزف مع عدم التقصير فى اداء واجباته الدينية والرسمية ، ولكن بعدما تقلد منصب الامارة ترك جميع ملذات العيش ولم يبق له هم الا فى صحبة العلماء والفقهاء والاتقياء من الصوفية ، ومن المصادفات ان اضطر كثير من الامراء ، ومعهم العلماء والادباء والشعراء والفنانون ، الى الهجرة من تركستان لاشتداد ضغط المغول عليهم ، فلجأوا الى

دهلي حيث آواهم بلبن وهيأ لهم جميعا اسباب الحياة مع الاكرام وحسن التقدير ، فاصبحت لدار مملكته مرتبة عالية فى العلم والفن ، فمن اشهر هؤلاء العلماء برهان الدين محمود البلخي الذى اخذ الفقه عن الشيخ برهان الدين المرغيناني صاحب الهداية الذى كان تنبأ بنباهة شان تلميذه الى درجة ان الملوك سيزورونه فى بيته ، وقد صدق قوله فان السلطان بلبن اعتاد ان يعرج على بيته كلما قفل راجعا من المسجد الجامع بعد اداء صلاة الجمعة ، وقد كان لبرهان الدين محمود ايضا شرف التخرج على الامام الصاغاني صاحب مشارق الانوار فى الحديث ـ كذلك افتخرت دهلي فى تلك الايام بوجود تلميذ للامام فخر الدين الرازي فى الفلسفة ، الا وهو العلامة نجم الدين عبد العزيز الدمشقي ـ هذا وقد زار دهلي فى ايام بلبن ابن بطوطة الذى يشهد بعلم بلبن وفضله وحسن سيرته ورقي العلوم ونفوذ العلوم وكثرة المدارس فى ايامه ـ واخيرا لا ننسى انه لم يمنعه شغفه بالعلم وتزكية الباطن من الاقبال بجد واهتمام على سياسة الامور الدنيوية ، اذن كان بلبن ملكا مثاليا من حيث الجمع بين العلم النافع والعمل الجدي فى الدنيا الآخرة .

الباكستان ـ د. محمد يوسف

المال ...

قال عمرو بن العاص لمعاوية: ماأشد حبك المال ، قال : ولم لا احبه وأنا استعبد به مثلك ، وابتاع به مروءتك ودينك .

وقال بعض الفرس : من زعم انه لا يحب المال فهو عندي كاذب حتى يثبت صدقه ، واذا ثبت صدقه فهو عندي احمق .

وقال يونس : لو ان الدنيا مملوءة دراهم على كل درهم مكتوب من اخذه دخل النار لأمست وما على ظهرها درهم يوجد .

وقيل لما ضربت الدراهم والدنانير صرخ ابليس صرخة وجمع اصحابه فقال : قد وجدت ما استغنيت به عنكم فى تضليل الناس ، فالاب يقتل ابنه والابن يقتل اباه بسببه .